shwaihy
20-8-2010

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والفنون - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية - المجلد السابع - العدد الثالث ١٣٩٨ - ١٩٧٨ .

المورد المجلد السابع خريف ١٩٧٨ العدد الثالث

دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م

نظريات نشأة اللغة عند العرب

بقلم الدكتور
محمد حسين آل ياسين
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

اللغة ـ في ابسط تعريفاتها ـ أصوات خاصة ينقل المتكلم بوساطتها ما يدور في ذهنه من معان وافكار . والى مثل هذا التعريف ذهب ابن جنّي ، من علمائنا القدامى فقال في : « باب القول على اللغة وما هي : اما حدها فأصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم ، هـذا حدها . »(١) ، وهو كما نرى تعريف جامع مانع فهي أصوات وهي أداة تعبير عند قوم بعينهم لتعدد اللغات والالسن في الناس وذلك التعبير عن مختلف الاغراض . وذهب غيره مذاهب تختلف عن مذهبه في تعريف اللغة فقد « قال ابن الحاجب في مختصره : حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى . وقال الاسنوي في شرح منهاج الاصول : اللغات عبارة عن الالفاظ الموضوعة للمعاني . »(٢) ونحن نرى أن هذين الحدين دون حد ابن جني دقة وشمولا فانهما قصرا اللغة على اللفظ الموضوع لمعنى دون أن يكون ذلك تعبيرا عن معنى وأداء لغرض معين . صحيح أن العلم الحديث اثبت أن للحيوان لغات يعبر بها ويتكلم الا أن ابن الحاجب والاسنوي لم يذهبا الى ذلك ولم يقصداه ، حيث نجد أن ابن خلدون كان اكثر منهما دقة حين قال : « اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده . وتلك العبارة فعل لساني فلا بد أن تصير ملكة مقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصلاحاتهم . »(٣) ومهما يكن من امر فان اللغة في شكليها الملفوظ والمكتوب اداة عجيبة تنتقل بها الاشياء التي تقع عليها حواسنا الى اذهاننا ، فكل ما تموج به الدنيا من مشاهد وصور ، في الطبيعة او المجتمع ينتقل بصورة عجيبة الى الذهن بطريق الكتابة واللفظ . وكذلك كل ما في الذهن من خواطر ومشاعر وافكار ينتقل الى الاخرين وينتقل من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل . فاللغة هي الجسر الذي يصل بين الحياة والفكر ، تسبق وجود الاشياء احيانا وتلحقها احيانا اخرى . فالفكرة التي تجول في الذهن مجردة تنتقل الى شيء يتحقق وجوده وبعد ان يوجد الشيء ينتقل الى اذهان الاخرين بطريق اللغة(٤) .

وليس مهما بعد ذلك أن نعرف أن لفظ (لغة) على زنة « فعلة من لغوت اي تكلمت واصلها لغوة »(٥) او انها « من لغي يلغى من باب رضي اذا لهج بالكلام ، وقيل من لغى يلغى(٦) » ، لان ذلك ليس من بحثنا ، وانما الذي يهمنا هو أصواتها ونشأتها ودلالاتها .

وقد اختلف الباحثون والعلماء قديما في نشأة اللغة وذهبوا في ذلك مذاهب شتى(٧) بعضها يعتمد النقل والاخبار والتسليم بهما دون نظر وتمحيص وبعضها يعتمد المنطق المجرد من فهم طبيعة المجتمع وتشعّب حاجاته وازديادها المؤدي الى نشوء الالفاظ الجديدة والمسمّيات الاخرى ، وبعضها مما

(١) الخصائص ١/٣٣ . والفلسفة اللغوية ص ١٩ دون اشارة الى انه تعريف الخصائص .
(٢) المزهر ١/٨ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ٤٨٢ .
(٤) ينظر : فقه اللغة وخصائص العربية ص١٤ وما بعدها .
(٥) الخصائص ١/٣٣ .
(٦) المزهر ١/٨ .
(٧) يراجع بهذا الشان : التطور اللغوي التاريخي ص٧ وما بعدها .

يؤيده العلم اللغوي الحديث وان كانت من الآراء القديمة ، وهذا مما يجعلنا أكثر اعتزازا بنتاج اسلافنا العلماء ، واجمل هذه الآراء أو النظريات ليتبين لنا مدى تصور اللغويين لهذه المشكلة :

١ ـ التوقيف او الالهام(٨) : ويقرر هذا الرأي أن اللغة وجدت نتيجة الهام الهي الهمه الانسان فتعلم النطق واسماء الاشياء . وقد ذهب الى هذا الرأي من اليونانيين الفيلسوف المعروف (هيراكليت) ، وبعض علماء اللغة الهنود الذين رأوا أن « اللغة قديمة وهي هبة الهية وليست من صنع البشر . وصرحوا بأن المعنى الاساسي للفظ لم يأت عن طريق الاصطلاح ولكن عن طريق الاله »(٩) . كما « ناقش اليونانيون مشكلة نشأة اللغة ، واختلف الراي حولها أهي طبيعية أم اصطلاحية »(١٠) . كما أيدها من العرب المسلمين جماعة منهم احمد بن فارس حيث يقول « ان لغة العرب توقيف . ودليل ذلك قوله جل ثناؤه (وعلم آدم الاسماء كلها) فكان ابن عباس يقول : علمه الاسماء كلها وهي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وارض وسهل وجبل وحمار واشباه ذلك من الامم وغيرها . وروى حصيف عن مجاهد قال : علمه اسم كل شيء . وقال غيرهما : انماعلمه اسماء الملائكة . وقال آخرون :علمه اسماء ذريته أجمعين . »(١١) ويبالغ في اثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح ، ويرى كما راى في زعمه ابن‌عباس فان « الذي نذهب اليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس . فان قال قائل : لو كان ذلك كما تذهب اليه لقال (ثم عرضهن أو عرضها) فلما قال (عرضهم) علم أن ذلك لاعيان بني آدم أو الملائكة ، لان موضوع الكناية في كلام العرب يقال لما يعقل (عرضهم) ولما لا يعقل (عرضها أو عرضهن)، قيل له : انما قال ذلك ، والله أعلم لانه جمع ما يعقل ومالا يعقل فغلّبَ ما يعقل وهي سنّة من سنن العرب اعني (باب التغليب) . وذلك كقوله جل ثناؤه (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على اربع) فقال (منهم) تغليبا لمن يمشي على رجلين وهم بنو آدم(١٢) » وهكذا نجد ابن فارس يدور في هذا الحوار والجدل المنطقي القائم على الاعتماد على النص واستنباط الاجوبة من هذه النصوص دون اعمال الفكر في الموضوع الاساسي ، ويستمر في هذا الحوار الموهوم فيقول : « فان قال : أفتقولون في قولنا سيف وحسام وعضب الى غير ذلك من أوصافه أنه توقيف حتى لا يكون شيء منه مصطلحا عليه ؟ قيل له : كذلك نقول . والدليل على صحة ما نذهب اليه اجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم . ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن اولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق »(١٣) .

ودليل ابن فارس هنا هو احتجاج العلماء بلغةالعرب الاوائل وبشعرهم وعدم احتجاجهم بلغة اليوم ولا فرق بين اللغتين لولا التوقيف ، وهو دليل واهٍ وضعيف وليس مقصد العلماء من احتجاجهم بلغة اولئك وعدم احتجاجهم بلغة هؤلاء الا سلامة اللغة عند اولئك ونقاوتها واحتفاظها بأصالتها وعدم اختلاطها بغيرها من اللغات وتأثرها بها ، لا كما ظن ابن فارس من أن السبب هو توقيف تلك وانقطاع ذلك التوقيف عندهم . وهو يوضح فكرته هذه فيقول : « ولعل ظانا يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف انما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد . وليس الامر كذا ، بل وقف الله جل وعز آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه اياه مما احتاج الى علمه في زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم عليه السلام من عرب الانبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ما شاء أن يعلمه، حتى انتهى الامر الى نبينا محمد صلى الله تعالى‌عليه وآله وسلم ، فآتاه الله من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله ، تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة ثم قر الامر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت . فان تعمل اليوم لذلك متعمّل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده »(١٤) . وكأن الحجة العلمية التي يسوقها هنا هي أن نقاد العلم سينفون ويردون من يتعمّل وضعا في اللغة ، وليس الدليل على أن

---

(٨) ينظر : محاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي على طلبة قسم اللغة العربية (مخطوطة) ص٧ ، ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ص ٢٢ ، وعلم اللغة ص٨٨ ، وتاريخ آداب العرب ٤٥/١ والدراسات اللغوية عند العرب ٤٤٥ .

(٩) البحث اللغوي عند الهنود ص ٩٩ .

(١٠) روبنس : Ashort History ص ١٧ عن : البحث اللغوي عند الهنود ص ١٥٠ .

(١١) الصاحبي ص ٥ ، ونقل كلامه بنصه في المزهر ٨/١ .

(١٢) الصاحبي ص ٥ .

(١٣) نفس المصدر والصفحة .

(١٤) الصاحبي ص ٦ . ونقل هذا النص في المزهر ٩/١ .

الوضع لم يقع الا هذا النفي والرد من نقاد العلم ، وهي كما نرى حجة ضعيفة لا تثبت شيئا مما يريد ولا تبطل مالا يريد ، يضاف الى ضعفها ما يمكن أن نلمسه من ثغرات أخرى في قوله : « ولقد بلغنا عن ابي الاسود ان امرءا كلمه ببعض ما انكره ابو الاسود فسأله ابو الاسود عنه فقال : هذه لغة لم تبلغك . فقال له : يا ابن أخي لا خير لك فيما لم يبلغني . فعرفه بلطف أن الذي تكلم به مختلق . وخلة أخرى انه لم يبلغنا ان قوما من العرب في زمان يقارب زماننا اجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم »(١٥) ، وفي كلام ابن فارس هذا ما يرد به عليه ، فعبارة (مختلق) دليل عليه لا دليل له ، اذ ان الاختلاق الذي يقصده هنا هو استعمال جديد لم يسبق به ابو الاسود ، مما يدل على وجود وضع لغوي تدعو الحاجة اليه ، وأن التوقيف أو الالهام لم ينزل بهذا الجديد (المختلق) الذي دعت له الضرورة الحضارية . اما ان ابن فارس لم يبلغه ان العرب في زمان يقارب زمانه اجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه ليدل ذلك على اصطلاح قديم في اللغة ، فهو قول فيه كثير من البساطة والغفلة ، فكل دارسي التطور اللغوي التاريخي وحتى غير هؤلاء الدارسين ، يعرف كم استجد في زمان يقارب زمان ابن فارس من المسميات والاشياء والاشتقاقات والمجازات والحاجات اللغوية التعبيرية التي دعت لها جميعا حضارة الدولة الاسلامية في امصارها المختلفة واللغة مازالت تنمو وتكتمل وتتوسع بوسائلها المختلفة ، والنصوص الفنية زاخرة بالامثلة والشواهد . أفبعد كل هذا لم يبلغ ابن فارس ان العرب اجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه . الا اذا كانت فكرة الاصطلاح عنده مرتبطة بوضع معين لا يكون غيره فهذا شيء اخر ، كأن يجتمع العرب كلهم في وقت واحد ويقرروا بالاجماع أن اسم الشيء الفلاني هو كذا . اذا كان التصور هكذا ففي هذا بعد عن فهم طبيعة اللغة ووسائل نموها وطرائق اتساعها .

نعود الآن فنقول ان هذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وقد خطر له أن النحاة يقولون ان العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبتدىء بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمي الشخص الواحد بالاسماء الكثيرة ، وتجمع الاشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد ، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار في كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله : ان العرب تفعل كذا بعدما وطأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهي الامر الى الموقف الاول . ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ في تأييد هذا الرأي الا عند الكلام على منشأ اللغات ، فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصقاع والاقاليم تأثيرا في تكوين اللغة وان لم يعط هذا الوجه حقه من البيان(١٦) .

وفي الوقت الذي نجد ابن فارس من مؤيدي فكرة توقيف اللغة نجد ابن جني من المترددين في الاخذ بها . فقد قال بها في موضع وعدل عنه في آخر وقال بمذهب الاصطلاح ثم قال بتقليد الاصوات الطبيعية وانتهى به الامر الى عدم الاخذ بواحد منها والوقوف موقف الجاهل الذي ينتظر الحجة القوية التي تجره الى الاخذ بمذهب من مذاهب نشوء اللغة . الا انه نقل رأي استاذه ابي علي الفارسي الذي كان يقول بتوقيف اللغة مناقشا اياه في ذلك : « الا ان ابا علي رحمه الله قال لي يوما: هي من عندالله واحتج بقوله سبحانه (وعلم آدم الأسماء كلها) وهذا لا يتناول موضع الخلاف . وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله : أقدر آدم على ان واضع عليها ، وهذا المعنى من عندالله سبحانه لا محالة . فاذا كان ذلك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به وقد كان أبو علي رحمه الله ايضا قال به في بعض كلامه . وهذا ايضا رأي ابي الحسن ، على أنه لم يمنع قول من قال : انه تواضع منه . على أنه قد فسر هذا بأن قيل : ان الله سبحانه علم آدم اسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات : العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات. فكان آدم وولده يتكلمون بها ، ثم ان ولده تفرقوا في الدنيا ، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها لبعد عهدهم بها »(١٧) . الا ان ابن جني كما قلنا مترددفي الاخذ بمذهب معين من مذاهب نشأة اللغة ، فهو هنا يحاول تخريج الآية تخريجا يبعدها عن أن تكون دليلا قاطعا على توقيفية اللغة وان لا تحتمل شيئا اخر ، وانما جعل المعنى أن الله أقدر آدم على الوضع ، أو أن ولد آدم لما كثروا نصلوا من اللغة الموقوفة ووضعوا لغاتهم التي عرفت فيما بعد ،

(١٥) نفس المصدر والصفحة .

(١٦) النثر الفني في القرن الرابع ٢/٤١ .

(١٧) الخصائص ١/٤٠ ـ ٤١ .

غير أنه ـ أي ابن جني ـ مال الى الاعتقاد بتوقيفية اللغة فقال في غير هذا الموضع : « وانضاف الى ذلك وارد الاخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعز ، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه وأنها وحي »(١٨) . فهو هنا يعطل ذهنه ويسلم بالاخبار المأثورة التي نقلت أن اللغة توقيف ، ولا حاجة الى الغاء هذه المأثورات ، والذهاب الى ما يخالفها . الا انه ذهب فعلا الى ما يخالف هذه الاخبار ويلغيها كما سنرى فيما بعد .

وعندما نواصل تتبعنا لمذاهب نشوء اللغة نصل الى السيوطي الذي نقل لنا آراء العلماء في ذلك نقلا مجردا من الحكم بصواب واحد وخطأ آخر ، وكأنه لم يرد أن يزج نفسه في هذه المعمعة وأراد أن يسجل بموضوعية حجج كل فريق على الاخر دون ان يطرح فيها رأيا له بينها . واكتفى عند الحديث في ذلك بأن قال : « واختلف هل هي بوضع الله او البشر على مذاهب ، احدها وهو مذهب الاشعري انها بوضع الله ، واختلف على هذا هل وصل الينا علمها بالوحي الى نبي من انبيائه ، او بخلق اصوات في بعض الاجسام تدل عليها ، واسماعها لمن عرفها ونقلها ، أو بخلق العلم الضروري في بعض العباد بها ، على ثلاثة آراء ارجحها الاول ، ويدل له ولاصل المذهب قوله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها) اي اسماء المسميات ؛ قال ابن عباس : علمه اسم الصحفة والقدر حتى الفسوة والفسية . وفي رواية عنه : عرض عليه اسماء ولده انسانا انسانا والدواب. فقيل هذا الحمار ، هذا الجمل ، هذا الفرس . اخرجهما ابن ابي حاتم في تفسيره . وتعليمه تعالى دال على انه الواضع دون البشر وان وصولها بالوحي الى آدم ، ومال الى هذا القول ابن جني ونقله عن شيخه أبي علي الفارسي وهما من المعتزلة »(١٩) . فالسيوطي هنا يعرض راي الاشعري في توقيف اللغة وانها من وضع الله وينص على ميل ابن جني واستاذه ابي علي الفارسي لهذا الراي وينقل المأثور عن ابن عباس الذي يحتج به هؤلاء على صحة مذهبهم ، دون ان يكون له دلو يدلي به في هذا الشأن . كما يلاحظ ان مسألة التوقيف نفسها اختلف في أمرها على مذاهب ثلاثة عرض لها السيوطي ايضا ، فليس التوقيف فقط ان يوحي الله الى نبي من انبيائه باللغة ، وانما قد يكون أصواتا تصدر من أجسام تسمع وتعرف ، وقد يكون علما ذاتيا في الناس جبلهم الله عليه يستطيعون بوساطته الكلام ، وكل هذه الامور هي صور من التوقيف الالهي مادام الله هو السبب في وجودها واحداثها لا البشر ، الا ان الارجح كما يقول السيوطي هو الوحي المباشر للانبياء اذ ان هذا هو ما قال به العلماء قبله كأحمد بن فارس وأبي علي الفارسي وابن جني في أحد أقواله ، وابن عباس من المفسرين والاشعري من الفقهاء ، ومدار الاحتجاج لديهم الآية الكريمة . غير ان السيوطي ذكر لنا حجج القائلين بالتوقيف على ان الآية واحدة من حجج أربع فقال : « واحتج القائلون بالتوقيف بوجوه : اولها ـ قوله تعالى : (وعلم آدم الاسماء كلها) ، فالاسماء كلها معلمة من عند الله بالنص . وكذا الافعال والحروف لعدم القائل بالفصل ، ولان الافعال والحروف ايضا اسماء ؛ لان الاسم ما كان علامة ... وثانيها ـ انه سبحانه وتعالى ذم قوما في اطلاقهم اسماء غير توقيفية في قوله تعالى : (ان هي الا أسماء سميتموها) ، وذلك يقتضي كون البواقي توقيفية . وثالثها ـ قوله تعالى : (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم) ، والالسنة اللحمانية غير مرادة لعدم اختلافها ، ولان بدائع الصنع في غيرها اكثر ، فالمراد هي اللغات . ورابعها ـ وهو عقلي : او كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج في التخاطب بوضعها الى اصطلاح آخر من لغة او كتابة ، ويعود اليه الكلام . ويلزم اما الدور أو التسلسل في الاوضاع وهو محال ، فلا بد من الانتهاء الى التوقيف»(٢٠) . ولا ارى حاجة الى تفنيد هذه الحجج فهي بادية الضعف والتمحل والنظر المنطقي الجاف البعيد عن فهم روح اللغة وخضوع نشأتها لحاجات المجتمع وتطور اسبابه المختلفة ، كما يظهر فيها استنباط مالا ترمي اليه الآيات الكريمات ، ولا ادري كيف يستدل بقوله : (ان هي الا اسماء سميتموها) على ان اللغة توقيفية وان الآية تذم الوضع في اللغة ، وكل ما تقصده الآية ان هذه الاسماء التي اطلقها العرب هي مما يتنافى والعقيدة الاسلامية والمنهج الذي يسير عليه الاسلام والعبادة لله وحده ، ولم تكن تقصد الاشارة الى اللغة ونشأتها وانهم خالفوا نشأتها التوقيفية باصطلاحهم اسماء من عندهم . وكذلك الامر بالنسبة لقوله : (واختلاف السنتكم) فهي ـ في

(١٨) نفس المصدر ٤٧/١ .
(١٩) الاقتراح ص ٦ ـ ٧ .
(٢٠) المزهر ١٧/١ .

رأيي ـ دليل معاكس للاحتجاج ، فاختلاف اللغات دليل على خضوعها جميعا لعوامل المجتمع الذي تنشأ فيه واختلاف البيئات والحاجات والاقاليم الجغرافية وانتشارها وتشعبها الى لهجات مما تفرضه سنة التطور اللغوي دائما وابدا ، وهكذا تتهافت الحجج وتضمحل حتى لا تقوى أن تقوم دليلا على صحة ما يذهبون اليه .

نخلص من ذلك كله الى ان أصحاب هذا المذهب ـ أعني مذهب التوقيف في اللغة ـ لا « يقدمون بين يدي مذهبهم دليلا عقليا يعتد به . « يقدمون بين يدي مذهبهم دليلا عقليا يعد به . أما أدلتهم النقلية فبعضها يحتمل التأويل وبعضها يكاد يكون دليلا عليهم لالهم ، فالمؤيدون لهذا الراي من باحثي العرب يعتمدون على قوله تعالى : (وعلم آدم الاسماء كلها) وهذا النص ليس صريحا فيما يدعون . اذ يحتمل أن يكون معناه ـ كما ذكر ذلك ابن جني في كتابه الخصائص وذهب اليه كثير من أئمة المفسرين ـ ان الله تعالى اقدر الانسان على وضع الالفاظ . وأما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة فيعتمدون على ورد بهذا الصدد في سفر التكوين اذ يقول : (والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الانسان . فوضع آدم اسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول) وهذا النص لا يدل على شيء مما يقول به اصحاب هذه النظرية بل يكاد يكون دليلا عليهم . ومهما يكن من شيء ، فلا صلة للدليل النقلي بمقام البحث العلمي »(٢١) . واني لارى أن المسألة عند هؤلاء ليست علمية بقدر ما هي تعبدية ، يصدرون الى آرائهم من تدين وتحفظ ورغبة في أن يكون الله هو موجد كل شيء وسبب جميع الظواهر وخالق الناس والسنتهم وطباعهم ، فمن هذا المنطلق قال ابن فارس وأبو علي الفارسي وابن جني وابن عباس والاشعري وغيرهم بهذا ، ونحن نعرف من هؤلاء من الاسلام والالتزام بنصوصه وتشريعاته حتى اذا عرفنا أن ابا علي الفارسي وابن جني من المعتزلة الذين عرفوا باستخدام العقل والتحرر المنطقي من النص وجدناهما يترددان بين المذاهب المختلفة في نشأة اللغة من غير التزام بالتوقيف الذي قالا به مرة من المرات ، فهما في هذا التنقل يجمعان بين التعبد المحض والاعتزال ، بين النقل والعقل ، وهذا التفسير لا نجده عند ابن عباس مثلا او الأشعري أو ابن فارس الذين كان لهم من اختصاصاتهم في التفسير والفقه ما يخولهم ودون وعي أن يجزموا بتوقيف اللغة من الله . يؤيد هذا أن القائلين بنظرية توقيف اللغة «في العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الاب لامي في كتابه (فن الكلام) والفيلسوف دوونالد في كتابه (التشريع القديم)»(٢٢) . فالاول (أب) وهو لقب من القاب رجل الدين المسيحي ، والثاني فيلسوف معني بأبحاث التشريع ، وكلاهما يصدران عن ذهنية تحترم النقل ، ولابد انهما اعتمدا على النص الذي نقلناه في سفر التكوين ، فيكونان بذلك ممن يصدق عليهم تفسيرنا الذي بيناه فيمن يذهب مذهب التوقيف في اللغة .

٢ ـ التواضع والاتفاق(*) : تقرر هذه النظرية ـ خلافا لسابقتها ـ أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع عليها وارتجال الفاظها ارتجالا . وممن ذهب الى هذا الرأي من فلاسفة اليونان القدامى الفيلسوف ديموكريت (القرن الخامس ق.م)(٢٣) . واشار الهنود الاوائل الى ذلك في واحدٍ من آرائهم في نشأة اللغة (٢٤) . وذهب بعض علماء المسلمين كذلك هذا المذهب منهم ابن جني في أحد أقواله ولعل استاذه ابا علي الفارسي مال اليه في شيء من تأويل رأيه ، كما قال به أبو اسحق الاسفرائيني(٢٥) ، وابن خلدون . ولا اميل الى القول بأن السيوطي قال بهذه النظرية وانما عرض لكل النظريات دون أن يرى رأيا ، خلافا لمن عده من القائلين بها(٢٦) ، وكذلك الامر بالنسبة للزبيدي صاحب التاج .

فابن جني وقد مر انه قائل بالتوقيف عاد هنا ليقول بالتواضع والاصطلاح ، فبالرغم من كون وارد

---

(٢١) علم اللغة ص ٩٠ ، ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ص ٢٤ . وينظر أيضا : الفلسفة اللغوية ص ١٣١ هامش الناشر .

(٢٢) نشأة اللغة عند الانسان والطفل ص ٢٣ ، وعلم اللغة ص ٨٩ .

(*) ينظر : تاريخ آداب العرب ٤٦/١ ، محاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي (مخطوطة) ص ٧ـ٨ . والدراسات اللغوية عند العرب ٤٤٨ .

(٢٣) ينظر : نشأة اللغة عند الانسان ٢٤ ، وعلم اللغة ٩٠ ، والفلسفة اللغوية ص ١٢٩ ، ص ٥٦ هامش الناشر .

(٢٤) البحث اللغوي عند الهنود ص ١٠٠ .

(٢٥) نقل في الفلسفة اللغوية ص ١٣٠ نصا عن ابي اسحق هذا دون اشارة الى المصدر .

(٢٦) الفلسفة اللغوية ص ١٣١ هامش الناشر ، ص ٥٦ هامش الناشر .

الاخبار والمأثور يقوي عنده أنها من عندالله « غير أن أكثر اهل النظر على ان أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح لا وحيٌ وتوقيف »(٢٧) ، وكأن تلك الاخبار والمأثورات لم تكف لاقناعه بأن اللغة وحي والهام فراح يلتمس تفسيرا اخر معتمدا هذه المرة (أهل النظر) مكان اعتماده في تلك (وارد الاخبار) ، ثم يشرح ذلك فيقول : « وذلك أنهم ذهبوا الى ان أصل اللغة لابد فيه من المواضعة ، قالوا : وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا الى الابانة عن الاشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمةً ولفظا ، اذا ذكر عرف به ما مسمّاه ليمتاز من غيره ، وليغني بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب واخف واسهل من تكلف احضاره لبلوغ الغرض في ابانة حاله » الى ان يقول : « فكأنهم جاؤا الى واحدٍ من بني آدم فأومؤا اليه وقالوا : انسان انسان انسان ، فأيّ وقتٍ سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق »(٢٨) . فابن جني في هذا البيان يشعر أنه آخذ بهذا الراي لانسجامه مع ذهنه العقلاني وتصور حكيمين أو ثلاثة مجتمعين لغرض التسمية والابانة ، الا أن هذا الاشعار اضعف من اشعاره بنظرية التوقيف ، فهو هنا لم ينص على الاخذ بها كما نص في تلك ؛ على ان هناك قرائن تفيد منها انه اعتنق فكرة التواضع والاصطلاح حينا ، من تلك تفسيره (وعلّم آدم) بأن الله أقدره على الوضع ، وقد قال بهذا التفسير ايضا استاذه ابو علي الفارسي كما نص ابن جني على ذلك(٢٩) ، وهي اشارة قد تكون غير قوية الى اخذ الفارسي بنظرية التواضع بشيء من التحفظ. ومن القرائن ايضا انه قال بعد الحديث عن شيء من الترادف : « فاعجب للطف صنع الباري سبحانه في ان طبع الناس على هذا ، وأمكنهم من ترتيبه وتنزيله ، وهداهم للتواضع عليه وتقريره »(٣٠) . فعبارة : وهداهم للتواضع عليه ، هي التي نشعر منها أن اللاوعي ــ اذا صح التعبير ــ هو الذي اطلقها ، اذ ان الحديث ليس عن نشأة اللغة ليختار ويمحّص وانما الحديث عن الترادف فهو مصروف الذهن عن مسألة التوقيف والتواضع، وان كانت عبارة (وهداهم) مشعرة ايضا أن الله هو الذي اقدرهم على التواضع ، فهو هنا وهناك

(٢٧) الخصائص ١/٤٠ .
(٢٨) نفس المصدر ١/٤٤ .
(٢٩) نفسه ١/٤٠ .
(٣٠) الخصائص ٢/١١٧ .

في تفسير (وعلّم آدم) على خط واحد من الاعتقاد القائم على مرحلتين أو دورين : دورٌ يقوم به الله وهو أن يقدر الانسان على الوضع ، ودور يقوم به الانسان بأن يضع .

وعدّ السيوطي تفسير ابن جني لقوله تعالى (وعلم آدم) بأنه اقدره على الوضع ، مما يسلكه في القائلين بالاصطلاح حيث يقول : « والمذهب الثاني أنها اصطلاحية وضعها البشر ، ثم قيل وضعها آدم ، وتأوّل ابن جني الآية على ان معنى (علّم آدم) أقدره على وضعها . وقيل لعله كان يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجون الى الابانة عن الاشياء المعلومة فوضعوا لكل واحدٍ منها لفظا اذا ذكر عرف به »(٣١) . والظاهر أن السيوطي كان مولعا بمنهجه الذي يقوم على عرض وجهات النظر دون الاخذ بواحدة منها ، فبعد أن عدّ ابن جني في عداد القائلين بالاصطلاح راح ينقل لنا رايا آخر لابن جني كان يقول به الاخفش : « قال ابن جني : الصواب وهو راي ابي الحسن الاخفش ، سواء قلنا بالتوقيف أم بالاصطلاح ؛ أن اللغة لم توضع كلها في وقتٍ واحد بل وقعت متلاحقة متتابعة ، قال الاخفش : اختلاف لغات العرب انما جاء من قِبَل ان أول ما وضع منها وضع على خلاف ، وان كان كله مسوقا على صحةٍ وقياس ثم احدثوا من بعد اشياء كثيرة للحاجة اليها ، غير انها على قياس ماكان وضع في الاصل مختلفا» (٣٢). وهذا الراي الجامع بين التوقيف والتواضع او الطارح لكليهما هو أقرب من كل منهما على انفراد لحقيقة المسألة ، وكأن الاخفش قد نبه ابن جني الى شي كان قد فاته ، فسواء قال بالتوقيف أم بالاصطلاح فاللغة لم تكن موضوعةً في وقت واحد وانما تلاحق الوضع وتتابع ، فقد وضع منها شيء اولا ــ من قبل الله او البشر ــ ثم نمت وازدادت على مرّ العصور ، غير ان الاخفش يقرر أن الذي كان موضوعا اولا كان فيه اختلاف ، وعندما احدث الناطقون بعد ذلك كثيرا من اللغة توسع هذا الاختلاف وتبلور وصار ما نسميه بلغات العرب . والذي نريد أن ننتبه اليه هو عبارة : (ثم احدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة اليها) وهي عبارة صريحة بالقول بالتواضع والاصطلاح بل بما هو

(٣١) الاقتراح ص ٧ .
(٣٢) الاقتراح ص ٨ ، والكلام ملخص من كلام ابن جني ليس بلفظه في الخصائص ١/٤٢٧ وما بعدها .

أبعد من ذلك وعيا وفهما لطبيعة اللغة التي تقضي انها وليدة حاجة اجتماعية ضرورية .

فابن جني واستاذه ابو علي الفارسي وقبلهما الاخفش قائلون بالاصطلاح ، الا أن السيوطي ـ وهو جارٍ على منهجه ـ لم يقل به ولا بغيره ، وانما هو يعرض آراء القوم في نشأة اللغة دون أن يشاركهم في رأي أو يوافقهم في آخر ، ولو كان قد نقل رايا واحدا من هذه الآراء دون ان ينص على انه رايه لرجحنا أن يكون هذا مذهبه في المسألة ، لانه اورده دون الآراء ، أما وانه عرضها جميعا دون نصٍ على اخذه بواحد منها ، فهذا يدفع أن يكون قد اخذ بواحدٍ منها ، ويجدر أن اشير الى ان هذا هو دابه في التصنيف ومنهجه في التأليف الا ما شذ من مسائل قد نعلم ما رايه فيها والا فهو جامع مبوّب عارض . لذا نراه هنا وقد عرض لبعض الآراء في أنّ اللغة تواضع واصطلاح وبين وجوه القول في ذلك، راح ينقل لنا احتجاج القائلين بالاصطلاح نقلا موضوعيا مجردا على نسق ما فعل في عرضه احتجاج القائلين بالتوقيف فقال : « واحتج القائلون بالاصطلاح بوجهين : أحدهما ـ لو كانت اللغات توقيفية لتقدمت واسطة البعثة على التوقيف والتقدم باطل . وبيان بطلان التقدم قوله تعالى : (وما أرسلنا من رسولٍ الا بلسان قومه) وهذا يقتضي تقدم اللغة على البعثة . والثاني ـ لو كانت اللغات توقيفية فذلك امّا بأن يخلق الله تعالى علما ضروريا في العاقل انّه وضع الالفاظ لكذا أو في غير العاقل ، أو بالا يخلق علما ضروريا أصلا ، والاول باطل ؛ والا لكان العاقل عالما بالله بالضرورة . ولو كان كذلك لبطل التكليف . والثاني باطل لان غير العاقل لا يمكنه انهاء تمام هذه الالفاظ . والثالث باطل ؛ لان العلم بها اذا لم يكن ضروريا احتيج الى توقيف آخر ، ولزم التسلسل »(٣٣) . والاحتجاج كما نراه يقوم على النظر المنطقي والتلاعب الفلسفي الكلامي الذي يظهر فيه اثر الدراسات العقلية واضحا ، فعبارات (الدور) و (التسلسل) و (باطل) و (العلم الضروري) و (العاقل) و (التكليف) كلها من مصطلحات المناطقة والاصوليين ، لا من بحث اللغويين ، لذا فالمسألة ليست أكثر من جدل مختلق كما اختلق من قبل احتجاج القائلين بالتوقيف . يضاف الى ذلك جفاف تصوّر حكيمين أو ثلاثة يجتمعون ليصطلحوا على تسمية هذا المخلوق فيشيرون اليه ويرددون : انسان انسان فيصبح اسم هذا المخلوق انسانا ، عدا أننا نحتاج الى معرفة كيف نشأت لغة التخاطب فيما بينهم لكي يستطيعوا بوساطتها الاصطلاح والتواضع .

أما ابن خلدون الذي عدّ أيضا من القائلين بالاصطلاح ، فقد عثرنا له على نص واحد وردت خلاله عبارة تشعر برايه في المسألة ، فقال وهو يتحدث عن لغة التخاطب : « وهي مع ذلك تختلف باختلاف الامصار في اصطلاحاتهم فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الاندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته الى تأدية مقصوده والابانة عما في نفسه »(٣٤) ؛ فعبارة (في اصطلاحاتهم) تعني هنا في استعمالاتهم ، والاستعمالات هنا هي من وضع الامصار التي يتحدث عنها ابن خلدون ، فهو ـ على هذا الشكل من التأويل ـ قائلٌ بالاصطلاح أو التواضع في اللغة .

ومثل السيوطي في عرض وجهات النظر وبسط آراء العلماء : السيد محمد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس ، بل نقل عن السيوطي نفسه جل ما ذكره في موضوع (أن اللغة هل هي توقيفية أو اصطلاحية)(٣٥) ، ويبدأ عبارته عادة بقوله : نقل السيوطي في المزهر . وينقل عن السيوطي أيضا ما نقله السيوطي من كتب غيره ؛ وآراء العلماء . فهو على هذا لا يُعدّ قائلا برأي ولا منحازا الى جهة شأنه في ذلك شأن السيوطي .

وكان لنظرية الاصطلاح في اللغة دعاة في العصور الحديثة على راسهم : آدم سميث ورايد ودوجلد ستيوارت(٣٦) ، من الفلاسفة والباحثين الغربيين . وقال بها أيضا جرجي زيدان من العرب، فبعد أن تساءل « هل اللغة ضرورية توقيفيّة أم هي مكتسبة اصطلاحية » وبيّن ان الانسان ينشأ على اللغة التي يتكلّم بها قومه ، ولو انه نشأ بين قوم آخرين لكان تكلم لغتهم وهكذا ، ينتهي الى النتيجة بقوله : « وجملة القول ان اللغة مكتسبة اصطلاحية والقضيّة واضحة جليّة . »(٣٧) ؛ غير أن ما يلاحظ هنا انه فيم الاصطلاح على انه الاكتساب ، والامر مختلف عند اسلافه اللغويين العرب الذين فهموا الاصطلاح على أنه اجتماع

(٣٣) المزهر ١٨/١ .

(٣٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٢ .
(٣٥) تاج العروس ١٢/١ ـ ١٦ .
(٣٦) الفلسفة اللغوية ص ١٣١ هامش الناشر ، نشأة اللغة عند الانسان والطفل ص ٢٤ ، وعلم اللغة ص ٩٠ .
(٣٧) الفلسفة اللغوية ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

الحكماء واتفاقهم على وضع ما يريدون بالايماء المصحوب بلفظ الاسم . والاكتساب شيء يقره العلم اللغوي الحديث وهو بعيد عن الاصطلاح أو التواضع الذي تقصد اليه هذه النظرية .

نخلص من هذا كله الى أن هذه النظرية مفتقرة الى سند عقلي مقبول أو حقيقة تاريخية معتمدة ، وهي فيما تقرره تعارض القوانين العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية ، وهذه النظم لا تخلق من العدم ولا ترتجل ارتجالا . بل تتدرج في وجودها شيئا فشيئا من تلقاء نفسها حتى تستوي نظاما ناضجا مكتملا ، هذا الى أن التواضع على التسمية ـ كما قلنا سابقا ـ يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون . فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل(٣٨) .

٣ـ محاكاة الاصوات الطبيعية :(٣٩) وتذهب هذه النظرية الى أن اللغة نشأت من تقليد أصوات الطبيعة كالرعد والعصف ، واصوات الحيوانات ، وأصوات الضرب والقطع والكسر ومحاكاة التعبير الطبيعي عن الانفعالات كأصوات الضحك والبكاء والرهب وغيرها . ثم تطورت هذه المحاكاة بتطور عقل الانسان وحضارته وحاجاته ، واستوت على شكل لغة يستخدمها في أغراضه المختلفة .

والظاهر انها نظرية قديمة بالرغم مما توحي به من حداثة يتطلبها العلم اللغوي الحديث ، فقد ذهب اليها كثير من فلاسفة العصور القديمة ، كما ذهب اليها الخليل وابن جني من علماء العرب حيث يدل نقل هذا الراي في العين والخصائص على قومه وتوفر الذاهبين اليه ، يقول ابن جني : « وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ؛ وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبَّل »(٤٠) ؛ وابن جني يصرح أن هذا وجه صالح ومذهب متقبَّل عنده ، بمعنى أنه يراه ويذهب اليه ، واني لاعجب من الرجل قال بالتوقيف ، وقال بالاصطلاح ويقول بمحاكاة الاصوات الطبيعية ، وكيف يتنقل بعقله بين هذه النظريات التي تقتضي كل واحدة منها عقلية خاصة تطبعت على قبول هذا النمط من الفكر ، فهل يستطيع ابن جني بعد هذا ان يبرر ذلك بأن الله اقدر الطبيعة على اصدار أصواتها ، فاذا كان كذلك فما دور الحكماء المتواضعين في هذه المسألة . ومهما يكن من أمر فابن جني بأخذه هذا الراي وقبوله دلَّ على سمة في الفهم وعمق في الفكر ، اذ مازالت هذه النظرية مقبولة عند اللغويين الى اليوم اي بعد الخليل وابن جني باكثر من الف عام .

أما السيوطي فاكتفى بنقل نصّ ابن جني بادئا اياه « وقيل أصل اللغات كلها من الاصوات المسموعات » منتهيا الى قوله « واستحسنه ابن جني »(٤١) ، وكأن الامر لا يعنيه فلم يزد على هذا شيئا يراه ، فلا نستطيع أن نقول انه كان يرى هذا مثلما لم نستطع في السابق .

واشهر المحدثين الذاهبين الى هذا الراي العلاّمة وتني(٤٢) من الغربيين ، ومصطفى صادق الرافعي وعلي عبدالواحد وافي من العرب . يقول الرافعي : « وأقرب ما يصح في الظنّ أن الاصوات الحيوانية هي المثال المحتذى في لغة الانسان ، لانها محيطة به تتقلب على سمعه كلما سمع ، خصوصا والانسان في أول اجتماعه مضطر لمغالبة الحيوان ، فهو بهذا الاضطرار يتدبر اختلاف هيئات الصوت الواحد ومعاني ما فيه من النبر ، ودليله في ذلك افعال الحيوان التي تؤدي معاني هذا الاختلاف من نحو الغضب والالم والذعر وغيرها»(٤٣) ، ثم يستمر الرافعي في شرح وجهة نظره هذه منتهيا الى قوله : « وهذه الحالة كانت بدء اختراع اللغة . فلما بدأ الاجتماع يرتقي بنسبة أحوال الانسان يومئذ بدأ الاختراع الحقيقي في اللغة .. جعل يقلب المقاطع الثنائية التي عرفها على كل الوجوه التي تحدثها آلات الصوت ، فلما استتم صورها ارتجل المقاطع الثلاثية »(٤٤) . والرافعي بهذا يفسر البقايا الثنائية في اللغة وكأنه يرجعها الى هذه المرحلة التي تطورت اللغة منها الى الثلاثية ، وعبارته (ارتجل المقاطع الثلاثية) تشعر أن الحرف الثالث اعتباطي النشأة،

---

(٣٨) ينظر : علم اللغة ص ٩٠ ، ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ص ٢٥ .

(٣٩) ينظر : تاريخ آداب العرب ٤٨/١ ـ ٤٩ ، علم اللغة ص ٩٥ ـ ٩٧ ، نشأة اللغة عند الانسان والطفل ص ٣١ ـ ٣٣ ، والفلسفة اللغوية ص٥٨ هامش الناشر. والدراسات اللغوية عند العرب ٤٥ .

(٤٠) الخصائص ٤٦/١ .

(٤١) الاقتراح ص ٧ .

(٤٢) نشأة اللغة عند الانسان ص ٣١ . وعلم اللغة ص ٩٥ .

(٤٣) تاريخ آداب العرب ٤٨/١ .

(٤٤) تاريخ آداب العرب ٤٩/١ .

ولكني اميل الى ان هذا الحرف نشأ كما نشأ الحرفان او الاصلان الاولان ، فاذا كان الصوتان الاصلان يحاكيان صوت القطع مثلا فالصوت الثالث يحدد نوع القطع او طريقة القيام به .

اما علي عبدالواحد وافي فقد تحمس ايضا لهذه النظرية وتبناها واعتبرها اقرب النظريات الى حقيقة الامر ، وان كان قد اعترف بأن ليس هناك يقين يقطع بصحتها ، يقول : « وهذه النظرية هي ادنى النظريات الى الصحة واقربها الى المعقول، واكثرها اتفاقا مع طبيعة الامور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية . ولم يقم دليل يقيني على خطئها ، ولكن لم يقم كذلك اي دليل يقيني على صحتها . وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها وانما يقرب تصورها ويرجح الاخذ بها »(٤٥) ، ثم يحاول بعد ذلك اقامة الادلة على صحة هذا الراي بعد ان وجد نفسه منساقا الى تبنيه والاخذ به ناسيا انه اعترف قبل قليل بعدم وجود الادلة التي تقطع بصحته ، وبالرغم من ذلك فقد قال : « ومن اهم ادلتها ان المراحل التي تقررها بصدد اللغة الانسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل . ان الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام يلجأ في تعبيره الارادي الى محاكاة الاصوات الطبيعية . ومن ادلتها كذلك أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الانسانية في في مراحلها الاولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الامم الاولية . ففي هذه اللغات تكثر المفردات التي تشبه اصواتها اصوات ما تدل عليه »(٤٦) . والحقيقة أن هذه النظرية قد بولغ في اثبات صحتها وقربها من الصواب ، وقد توسع القائلون بها توسعا كبيرا واعتبروا لغة الطفل الاولى من ادلة صحتها كما مر قبل قليل عند وافي ، الذي اعتبر اللغات في الامم الاولية التي تكثر فيها مفرداتها التي تشبه اصواتها اصوات ماتدل عليه دليلا آخر على صحة رايه ، وفي ذلك تجن على الواقع كثير ، فمما لا يخفى على الدارسين أن مفردات المحاكاة الطبيعية في اية لغة كانت لا يمكن ان تزيد على نسبة ضئيلة بالقياس الى مجموع مفردات تلك اللغة مهما كانت بدائية أو لغة أمة أولية ، واذا شئنا تطبيق ذلك على العربية مثلا فسوف لا نجد غير : خرير وصهيل ونعيق وفحيح ورعد وكلمات اخرى لا يمكن ان تعبر عن أصل نشأت هذه اللغة عليه ، صحيح أن ذلك محتمل جدا في نشأة هذه المجموعة من المفردات دون غيرها من اللغة ، اذ قد تتوفر لنشأة غيرها عوامل أخرى ، فتكون اللغة بذلك وليدة العوامل جميعها والنظريات كلها ، وما المانع من ذلك ؟ .

٤ ـ **الوقف** : والمقصود به الجهل بحقيقة نشأة اللغة لعدم وجود ما يدل على طبيعة نشأتها دليلا قاطعا . واول من عدّ ذلك مذهبا قائما من مذاهب نشأة اللغة هو السيوطي حيث يقول : « والمذهب الثالث الوقف ، اي لا يدرى أهي من وضع الله أو البشر لعدم دليل قاطع في ذلك ؛ وهو الذي اختاره ابن جني اخيرا »(٤٧) ، والذي أوهم السيوطي ذلك هو قول ابن جني : « وان خطر خاطر فيما بعد يعلّق الكفّ باحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبتها قلنا به ، وبالله التوفيق »(٤٨) وابن جني لم يقصد من ذلك ان يؤسس مذهبا جديدا يفسر نشأة اللغة كما ظن السيوطي ، وانما أراد اراحة ذهنه المتعب الحائر بين البراهين المختلفة والادلة المتفرقة والحجج المتشعبة التي تجرّ كل مجموعة منها الى حظيرتها ونظريتها ، فأطلق قولته راميا بها تساوي المذاهب في قوة الحجة أو ضعفها ، فهو ينتظر خاطرا جديدا « يعلق الكف باحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبتها » ، وابن جني منذ عرفناه في نظرية التوقيف متردد متنقل بين المذاهب فبعد أن قال بالتوقيف قال بالاصطلاح ثم رجع الى محاكاة الاصوات الطبيعية واخيرا حلاله التنصل من جميع مواقفه محتجا بانه ينتظر ان يخطر خاطر يجرّه الى جهة من الجهات. واخطأ السيوطي بعدّ ذلك مذهبا مختارا من قبل ابن جني . وبديهي ان لا نجد لنظرية السيوطي هذه

(٤٥) علم اللغة ص ٩٦ ، ونشأة اللغة عند الانسان ص٣٢ .
(٤٦) علم اللغة ص ٩٧ ، ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ص ٣٣ .
(٤٧) الاقتراح ص ٧ .
(٤٨) الخصائص ٤٧/١ .

صدى بين المحدثين من اللغويين لعلمهم بضعف التصور وتداعي الفكر والبعد عن طبيعة الدّراسة اللغوية .

٥ ـ غريزة خاصة موحدة(٤٩) : وتقرر هذه النظرية ان اللغة نشأت أول ما نشأت بفضل غريزة خاصة كان الانسان الاول قد زُوّد بها ، وهي التي حملته على التعبير عن مداركه الحسية والمعنوية بالالفاظ الخاصة ، وان هذه الغريزة كانت موجودة عند جميع الافراد في تلك الفترة من التاريخ اللغوي ، لذا فقد توحدت المفردات اللغوية الاولى وتشابهت طرائق التعبير وتفاهمت الجماعات ، وانه بعد أن نضجت اللغات المختلفة ، واهمل الانسان هذه الغريزة التي لم يعد بحاجة اليها انقرضت فيه كما انقرضت غرائز أخرى كانت موجودة لنفس الاسباب(٥٠) .

ولا نجد في مصادرنا القديمة عبارة صريحة تشير الى اخذ القدماء بذلك أو اعتبارهم هذا الراي في جملة اعتباراتهم ، الا ما يمكن أن يستشف من تفسيرهم لقوله تعالى (وعلم آدم) انه اقدره على الوضع ، في أن هذا الاقدار هو خلق هذه الغريزة فيه . كما ذهب ابن جني واستاذه ابو علي الفارسي الى هذا التفسير كما مر ، وكما ذهب ابن فارس حين قرر أن اللغة لم تجيء جملة واحدة وانما وقف الله آدم على ما شاء أن يعلّمه اياه ، ثم انتشرت على ايدي الانبياء من بعده اللغات المختلفة المعروفة ؛ أو ما ذهب اليه الاخفش من ان لغات العرب وضع منها شيء أولا ثم تتابع الوضع وتلاحق ، أقول ربما كانت هذه الاشارات هي ما نستطيع أن نستنبط منها تلميح القدماء الى هذه النظرية ، الا أن الاقوى من هذه جميعا ما مر علينا في عرض السيوطي لنظرية التوقيف وتفريعه الآراء في التوقيف على مذاهب حيث يقول : « واختلف على هذا هل وصل الينا علمها بالوحي الى نبيّ من انبيائه ، أو بخلق اصوات في بعض الاجسام تدلّ عليها واسماعها لمن عرفها ونقلها ، أو بخلق العلم الضروري في بعض العباد بها ، على ثلاثة آراء ارجحها الاول »(٥١) فالرأيان الثاني والثالث يشيران الى ما نحن بصدده ، فخلق أصوات في بعض الاجسام تدل عليها واسماعها لمن عرفها ونقلها اشارة الى وجود هذه الغريزة الخاصة الموحدة ، وكأن السيوطي يريد أن يقول ذلك ولكن بأسلوب آخر . وكذلك خلق العلم الضروري في بعض العباد بها ، يشير بشكل ما الى هذا ، لان اصحاب هذه النظرية قرّروا أن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير ، فكأن هذا الفرد عندهم مزوّد بعلم التعبير والكلام ، وهذا هو العلم الضروري الذي أشار اليه السيوطي .

ومهما يكن من امر فان هذه النظرية بين المحدثين اشيع ، وقد صرّح بها جماعة من الباحثين الغربيين على راسهم اللغوي الالماني مكس مولر واللغوي الفرنسي رينان . وذكر لنا أن مكس مولر اعتمد « في تأييد هذه النظرية على ادلة مستمدّة من البحث في اصول الكلمات في اللغات الهندية الاوروبية . فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات جميعها ترجع الى خمسمائة اصل مشترك ، وان هذه الاصول تمثل اللغة الاولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة ، فهي لذلك تمثل اللغات الانسانية في اقدم عهودها . وتبين له من تحليل هذه الاصول انها تدل على معانٍ كلّية ، وانه لاتشابه مطلقا بين اصواتها وما تدل عليه من فعل وحالة »(٥٢) ، وترد هذه النظرية بصعوبة تصور وجود غريزة تنطق الانسان بلغة ما ثم يهجر هذه الغريزة وهذه اللغة عندما تبتدىء اللغة الحقيقية بالنشأة ؛ فنحن نحتاج في هذا تفسيرين الاول : في طبيعة هذه الغريزة وحقيقة وجودها بهذا الشكل الذي استطاع الانسان بوساطتها التفاهم والتعامل فيما بينه من حياة ، أما أن يكون قادرا على اطلاق اصوات مبهمة كيفما اتفق فهذا ليس موضوع البحث لان ذلك مقرر وواضح ومما يشترك فيه حتى الحيوان ، وذلك لوجود اعضاء النطق في خلق الانسان منذ البدء . والثاني : تفسير نشأة اللغة التي لاجلها هجر

(٤٩) الفلسفة اللغوية ص ٥٧ هامش الناشر .
(٥٠) ينظر : نشأة اللغة عند الانسان ص ٢٦ وما بعدها . وعلم اللغة ص ٩١ وما بعدها .
(٥١) الاقتراح ص ٦ .
(٥٢) علم اللغة ص ٩٢ وما بعدها . ونشأة اللغة عند الانسان ص ٢٦ وما بعدها .

لغة الغريزة ، وهو موضوع دراستنا ، لاننا بهذا الابهام ندور في حلقة مفرغة ونجري وراء الدور الباطل. وقد ردّت هذه النظرية أيضا بخطأ ذهابها: « الى ان الاصول الخمسمائة السابق ذكرها تمثل اللغة الانسانية الاولى ، فهذه الاصول كما تقدم تدلّ على معانٍ كلية . ومن الواضح ان ادراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الانسانية »(٥٣) . وهكذا نرى تداعي هذه النظرية وضعفها وبعدها عن سنة النشوء والتطور والارتقاء.

نخلص من هذا كله الى أن موضوع نشأة اللغة كان وما يزال من المواضيع التي شغلت المعنيين بهذا الجانب من جوانب المعرفة قديما وحديثا ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى على ما رأيناه في طرح نظرياتهم وآرائهم المختلفة ، التي ما كان كل واحد منها الا صدىً من امور هي التدين تارة والفلسفة تارة والبحث العلمي غير الدقيق تارة اخرى وضيق التفسير حينا ، دون أن نعثر بينها على التفسير العلمي الشامل والدقيق ، الذي يعتمد معرفةً دقيقة لسنن الظواهر الاجتماعية وكيفية نشأتها وتطوّرها ، ورقيّها . لان اللغة ظاهرة مجتمع بل هي اهم واخطر ظواهره تنشأ كما تنشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية ، فتخلقها في صورة تلقائية طبيعة الاجتماع ، وتنبعث عن الحياة العامة وما تقتضيه هذه الحياة من شؤون . والانسان لم يفكر في كيف يتكلم كما لم يفكر في كيف يمشي ويتحرك ويأكل ، وانما انطلق في مزاولة كل هذه الامور تلقائيا وبدون مقدمات ، لان حاجته الفطرية الى الاجتماع بغيره والتعاون والتفاهم وتبادل الافكار والتعبير عما يجول بالخواطر من معانٍ ومدركات هي التي أوجدت اللغة وحركت لسانه بأصواتها الاولى .

ومما يدعو للاعجاب أن يكون الهنود القدماء قد تنبّهوا الى اشياء من ذلك ، حين قرّروا أن اللغة من اختراع الانسان ، وقد حثّه على اختراعها حاجته الى الكلام ؛ اذ أن موضوع نشأة اللغة كان من المشكلات التي لفتت نظر علماء اللغة الهنود ، وبالرغم من ذهاب بعضهم الى التوقيف والآخر الى الاصطلاح الا أن اصحاب المدرسة العقلية للفلسفة الهندية نقدوا نظرية قِدم الكلام « واسسوا نقدهم على أن حركة الجهاز النطقي هي السبب المباشر الذي ادىّ الى حدوث الاصوات التي هي عرضة للاختفاء بمجرّد النطق بها »(٥٤) ، وهذه الآراء لها نصيب كبير من الصحة اذا قيست بما جدّ في العلم اللغوي الحديث . ولعل خلافهم حول نشأة اللغة بين القول بالتوقيف أو الاصطلاح هو الذي تأثر به اصحابنا اللغويون العرب قديما »(٥٥) ، كما تأثروا بأمور اخرى في ابحاثهم ، التي كان المسلمون على صلة بها في تلك الحقبة من التاريخ العربي الذي شهد الترجمة والنقل والسفر .

ولا يمكن بحال أن نقارن نشأة اللغة عند الانسان الاول بنشأتها عند الطفل كما ذهب الى ذلك بعض الباحثين(٥٦) ، فلا وجه للمقارنة لاختلاف الظرفين والوسائل ، صحيح أن الطفل ينطق اول ما ينطق بأصوات مبهمة تتبين شيئا فشيئا وتتوضح كلما نمت مداركه ومشاعره الا انه يقلد منذ الصوت الاول لغةً موجودة حوله ويستمر هذا التقليد حتى يكتمل لغةً هي لغة المحيط غير أن الانسان الاول لم يكن كذلك فالتطوّر الذي حصل بعد الاصوات الاولى تطور مخترع لم يعتمد التقليد وذلك لعدم وجود لغة اخرى يقلدها وانما هي مازالت تنشأ على لسانه تدفعه اليها الحاجة التي تتشعب يوما بعد يوم بتشعب حضارته وتطوّرها .

كما لا يمكن أن تخضع نشأة اللغة الى قانون ثابت ، صحيح انها تسير حسب قوانين الظواهر الاجتماعية والسنن التي سارت عليها هذه الظواهر الا اننا لا نستطيع أن نحدد القاعدة التي تنشأ عليها هذه الظواهر ، وتظلّ هذه اللغة التي لم تنشأ على قانون معين غير خاضعة لقانون ثابت حتى حين

(٥٣) نفس المرجعين السابقين ص ٩٤ ، ص ٢٦ وما بعدها .

(٥٤) البحث اللغوي عند الهنود ص ١٠٠ .
(٥٥) نفس المرجع ص ١٣٦ .
(٥٦) علي عبدالواحد وافي في كتابه : نشأة اللغة عند الانسان والطفل . ومصطفى صادق الرافعي في : تاريخ آداب العرب ١/٤٥ .

اكتمالها ونضجها ، والى مثل هذا ذهب جماعة من الدارسين الذين رأوا ان اللغة فطرة انسانية لا يمكن أن تنظمها قواعد أو قوانين ثابتة ، يتزعمهم (كرايتس) الذي حاول ان يثبت في دراساته عدم خضوع اللغة الى القواعد المطردة الثابتة(٥٧) . وهذا واضح فيما نعانيه خلال دراستنا للغة من اللغات من مشاكل صوتية ودلالية ونحوية وصرفية تعصّت على الدارسين في أن تخضع لقاعدة أو قانون ثابت .

فاللغة اذن تنشأ أصواتا مبهمة ، وأوّل هذه الاصوات بدائية أن يكون المقطع من صوت واحد طويل يتطور الى مقطع ثنائي الصوت يستطيع أن يعبر عن كثير من حاجات الانسان في هذه المرحلة التاريخية من حياته الحضارية ثم تتخذ شكلها النهائي بعد أن يستقر المجتمع وتتشعب حاجاته . والانسان في كل هذه المراحل مدفوع بهذه الحاجات ولا شيء سواها . حتى اذا اكتملت اللغة الانسانية الاولى والانسان مايزال قليل الافراد كانت هذه هي اللغة الوحيدة ، الى أن يتكاثر هذا الانسان ويضرب في الارض عرضا وطولا ويستقر في أرجاء كثيرة ونواحي متفرقة ، فرضت على لغته هذه البيئة الجديدة شيئا من التغيير ، الذي ينمو ويزداد حتى يبتعد بلسانه عن تلك اللغة الاولى التي انطلق منها ، فاذا به يتكلم لغة اخرى تمتّ الى تلك بشيء من نسب ، فتتكون بذلك أمهات المجاميع اللغوية التي هي الاخرى تتشعب الى لغات ثم الى لهجات بنفس الطريقة التي تشعبت بها تلك اللغة الموحّدة الاولى ، وهذا هو ما سنعرض له الآن .

انقسام اللغة الى مجموعات لغوية(٥٨) :

بدأ التفكير بتقسيم اللغات الانسانية الى أسر أو مجموعات لغوية في أواخر القرن الثامن عشر وذلك بعد أن عرفت السنسكريتية الاولى . وقد اختلف العلماء اختلافا كبيرا في تقسيم اللغات تبعا لاختلافهم في الاساس الذي يقوم عليه هذا التقسيم . ولكنهم لحظوا قرابة لغوية بين بعض اللغات فيما بينها ، وقرابة لغوية بين بعضها الاخر ، هذه القرابة تشمل أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل ، كما لحظوا أن الناطقين بهذه المجموعة اللغوية او تلك يؤلفون مجموعة انسانية متميزة ترجع الى أصول شعبية وروابط بيئية وجغرافية وتاريخية واحدة أو على الاقل متقاربة فيما بينها ، ولعل (مكس مولر) هو اشهر من نادى بهذا التقسيم (٥٩) وعلى هذا الاساس أرجعت جميع اللغات الانسانية الى فصائل ثلاث هي : الفصيلة الهندية الاوربية ، والفصيلة السامية الحامية ، والفصيلة الطورانية ، وكل واحدة من هذه الفصائل الثلاث هي في الاصل لغة ولد من أولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافث(٦٠) ؛ الذين انتشر ابناؤهم في اصقاع الارض وتكلموا باحدى هذه اللغات .

والذي يهمنا من هذه المجاميع هي المجموعة السامية التي هي أم طائفة من اللغات منها العربية، فمجموعة اللغات السامية تشمل طائفة من اللغات المعروفة فيما نصطلح عليه جغرافيا ببلاد الشرق الاوسط وما يتصل به من قريب . وهي على قسمين : الاول اللغات السامية الشمالية وهي البابلية القديمة والآشورية والاكادية والعبرية والفينيقية والآرامية . والثاني اللغات السامية الجنوبية ، وهي العربية واليمنية القديمة والحبشية وغيرها . وان تسميتها بالسامية قد حدث اعتباطا أول الامر ، ثم استقبل العلماء المعنيّون هذه التسمية بالرضا ، لانهم كانوا يعانون هذه المشكلة ، وأوّل من أطلقها العالم الالماني (شلوتزر) ، الا أن نولدكه اعترض عليها لعدم دقتها ، وسجّل هذه الاعتراضات في ابحاثه في هذا الموضوع(٦١) . الا أن الجدير بالذكر « ان اليهود الاندلسيين قد سبقوا هؤلاءالمستشرقين في لمح الصلة التي تربط بين هذه اللغات فأشاروا في رسائلهم الى

(٥٧) التطور اللغوي التاريخي ص ٨ .
(٥٨) يراجع في هذا الموضوع : التطور اللغوي التاريخي ص ٢١ ـ ٣٣ ، ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ص ٥٠ ـ ٥١ ، ودروس اللغة العبرية ص ٥ ـ ١٤ ، وعلم اللغة ص ١٧٩ ـ ١٨٥ ، ومحاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي (مخطوطة) ص ٩ ـ ١٠ ، ومقدمة في الاصول اللغوية المشتركة ص ٣ـ٥ والدراسات اللغوية عند العرب ٤٦٦ .
(٥٩) نشأة اللغة عند الانسان ص ٥٠ ، علم اللغة ص ١٧٩ .
(٦٠) دروس اللغة العبرية ص ٥ وما بعدها والدراسات اللغوية عند العرب ٤٦٦ .
(٦١) دروس اللغة العبرية ص ٦ وما بعدها ، ومقدمة في الاصول اللغوية ص ٣ .

العلاقة بين العبرانية والعربية ، وفي ضوء هذه العلاقة تناولوا المواضيع وكتبوا كتبا كثيرة »(٦٢) . وليس مهما هنا ان ننقل اختلاف العلماء في المهد الاصلي للامم السامية ، فسواء كان جنوب العراق او بلاد كنعان او بلاد الحبشة او شمال افريقية او جهات معيّنة من ارمينية او الجنوب الغربي من شبه الجزيره العربية(٦٣) ، فنحن في غنى عن ذلك ما دمنا ندرس العربية مهتدين اليها بمجموعتها اللغوية .

ان مجموعة هذه اللغات السامية تؤلف وحدة وذلك للمزايا المشتركة بينها ، منها : ان هذه اللغات تشتمل على عناصر مشتركة . وهي الضمائر واسماء الاشارة والاسم الموصول والظروف وحروف الاضافة والاصوات . واشتراكها في هذه المسائل يدفعنا الى القول بأنها من اصل قديم واحد نطلق عليه السامية الام التي تفرعت منها افراد هذه العائلة . ومنها أنها تشتمل على الفاظ ذات طابع بدوي يشير الى ان الاصل لابد ان يكون ذا طبيعة بدوية ، والى هذا ذهب القائلون بأن مهد الساميين الاول شبه جزيرة العرب . ومنها ان الفعل يشغل مكانة بارزة في هذه اللغات ، ومنها أن هذه اللغات ثلاثية الاصول ، وان الصيغة الثلاثية هي الغالبة وانه ينصار الى الرباعي من الثلاثي بطريقة من الطرائق . ومنها كثرة المفردات المشتركة بين هذه اللغات ، وخصوصا تلك الدالة على اعضاء الجسم والقرابة والعدد(٦٤) . وبالرغم من وجود بعض الخلافات الطبيعية بين لغات هذه المجموعة مثل تلك التي تتصل بأداة التعريف ونطق بعض الاصوات وابدالها وقلب بعض الحروف ، أقول بالرغم من ذلك فان « صلات القرابة الموجودة بين اللغات السامية بعضها البعض [كذا] صلات وثيقة نوعا ما ، وهي على اي حال أوثق منها بين اللغات الهندواوربية . فان اللغات السامية القديمة لا تبعد من بعضها بمقدار ما تبعد اللهجات الجرمانية المختلفة بعضها عن بعض »(٦٥) .

والعربية على ما يظهر هي اقرب لغات المجموعة الى اللغة السامية الام ، على أن هناك من ذهب الى ان العبرية هي الاقرب ومن ذهب الى أن الآشورية البابلية هي اللغة السامية الاولى ، الا ان اجماع العلماء بعد ذلك على ان العربية هي أقدم اللغات السامية واقربها الى الام ، واعتقادهم بأن الآراء الاخرى انما هي ناشئة من باعث ديني فيه تقديس للعبرية او الآرامية(٦٦) . وبعد ان تُرك ذلك « رغب الناس في الرأي القائل بأن العربية لاتزال اقرب اللغات جدا الى اللغة السامية الاولى » ويؤكد نولدكه ذلك فيقول : « واذا تبين الآن أكثر من ذي قبل ان اللغة السنسكريتية لم تكن في المرتبة التي تؤهلها للاحتفاظ بخصائص اللغة الهندو اوربية الاولى — كما كان يظن منذ زمن قليل — فانه لا يجوز للمرء ان يعترف للغة العربية في موضوعنا هذا بأكثر من قرب العلاقة بالسامية الاولى . حقا لقد احتفظت العربية اكثر من اخواتها بكثير من الصور الصادقة لعناصر اللغة الاولى . مثل الكمية الاصلية تقريبا من الاصوات الساكنة . وكذلك الحركات القصيرة في المقاطع المفتوحة ، ولا سيما في وسط الكلمات» ويعود فيستدرك على هذا بقوله : « الا انه من جانب آخر نرى ان العربية قد بنت بطريقة القياس البسيط عددا كبيرا من الصيغ التي تبدو لاول وهلة كأنها صيغ قديمة الاصل لشدة بساطتها ، ولكنها ليست في الواقع الا تحويرا للاصل ربما قابله تحوير آخر في اللغات السامية الاخرى . وانه ليوجد في العربية دائما ابدا اضطراد معين ما كان ليوجد فيها هكذا منذ البداية »(٦٧) ، واذا شئنا أن نبحث فيما الح اليه نولدكه من احتفاظ عربيتنا بخصائص السامية الاولى اكثر من احتفاظ اخواتها الساميات ، ذلك الذي خوّل العربية أن تكون اقرب هذه الاخوات الى الام ؛ وجدنا من ذلك عدة امور منها : احتفاظها بكل الاصوات الموجودة في اخواتها وزادت عليها اصوات غير موجودة الا بها كالضاد مثلا . ومنها ايضا احتفاظها بجميع قواعد النحو والصرف التي سارت عليها اللغات السامية وفاقت تلك اللغات باحتفاظها بقواعد لا نظير لها فيها او على الاقل بشكل بسيط . ومنها احتفاظها بأوسع ثروة لغوية في المفردات واصول الكلمات على اختلاف انواع الكلمة من اسم وفعل وحرف ، مالا وجود لهذه السعة في اخواتها الساميات(٦٨) . لهذا كله كانت العربية اصدق لغات المجموعة تمثيلا للغة الام القديمة .

---

(٦٢) محاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي على طلبة قسم اللغة العربية (مخطوطة) ص ٩ .
(٦٣) دروس اللغة العبرية ص ٨ — ١٢ .
(٦٤) اللغات السامية (نولدكه) ص ٩ ، ودروس اللغة العبرية ص ١٩ — ٢٠ ، ومقدمة في الاصول اللغوية ص ٤ — ٥ .
(٦٥) اللغات السامية ص ٥ .
(٦٦) اللغات السامية ص ١٣ ودروس اللغة العبرية ص ١٢—١٤ والاضداد في اللغة ١٣٦ وما بعدها .
(٦٧) اللغات السامية ص ١٣ .
(٦٨) فقه اللغة (وافي) ص ١٥٨ وما بعدها .

المصادر والمراجع :

١ ـ الأضداد في اللغة : محمد حسين آل ياسين ـ بغداد ١٩٧٤م .

٢ ـ الاقتراح في علم اصول النحو : السيوطي ـ حيدر آباد ١٣٥٩هـ .

٣ ـ البحث اللغوي عند الهنود : احمد مختار عمر ـ بيروت ١٩٧٢م .

٤ ـ تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي ـ الكويت ١٩٦٥م .

٥ ـ تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعي ـ القاهرة ١٩٤٠م .

٦ ـ التطور اللغوي التاريخي : ابراهيم السامرائي ـ القاهرة ١٩٦٦م .

٧ ـ الخصائص : ابن جني ـ القاهرة ١٩٥٢م .

٨ ـ الدراسات اللغوية عند العرب : محمد حسين آل ياسين ـ بغداد ١٩٧٧م .

٩ ـ دروس اللغة العبرية : ربحي كمال ـ دمشق ١٩٦٦م .

١٠ـ الصاحبي : احمد بن فارس ـ القاهرة ١٩١٠م .

١١ـ علم اللغة : علي عبدالواحد وافي ـ القاهرة ١٩٦٧م .

١٢ـ فقه اللغة : علي عبدالواحد وافي ـ القاهرة د.ت .

١٣ـ فقه اللغة وخصائص العربية : محمد المبارك ـ بيروت ١٩٦٨م .

١٤ـ الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية : جرجي زيدان ـ القاهرة د.ت .

١٥ـ اللغات السامية : تيودور نولدكه ـ القاهرة ١٩٦٣م .

١٦ـ محاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي على طلبة قسم اللغة العربية ١٩٦٨/١٩٦٩م .

١٧ـ المزهر : السيوطي ـ القاهرة د.ت .

١٨ـ المقدمة : ابن خلدون ـ القاهرة ١٩٣٠م .

١٩ـ مقدمة في الاصول اللغوية المشتركة بين العربية والعبرية : محمد حسين آل ياسين ـ بغداد ١٩٧١م .

٢٠ـ النثر الفني في القرن الرابع : زكي مبارك ـ القاهرة ١٩٣٤م .

٢١ـ نشأة اللغة عند الانسان والطفل : علي عبدالواحد وافي ـ القاهرة ١٩٤٧م .